عودة حـَيّ بن يقظان
قصة رمزية

مـقدمة

كتـاب "حـَيّ بـن يقظـان"، أحـد روائـع الأدب والفلسـفة العربيـة، قصـة رمزيـة تَـدَاول موضـوعها بالتتـابع أربعـة مـن أعظـم مفكـري العصـر الـذهبي للحضـارة الإسـلامية [ابـن سـينا وابـن طفيـل والسـهروردي وابـن النفيس]. وقـد اقترنـت القصـة فـي الأذهـان علـى الأخـص باسـم ثـانيهم: الفيلسـوف الطبيـب الأندلسـي ابـن طفيـل [1105-1185 م] الـذي كـان لـه تـأثير بـالغ علـى النهضـة العلميـة فـي أوروبا في القرون الوسطى.

القصـة تـدور حـول طفـل رضـيع ألقـت بـه أمـه (خوفـاً علـى حياتـه) علـى مـتن قـارب صـغير فـي البحـر فَـرَسا القـارب علـى جزيـرة غيـر مسـكونة حيـث اكتشـفته ظبيـة تعهـدت الرضـيع بالرعايـة. نشـأ الطفـل بـدون أي اتصـال بالبشـر واسـتخدم أثنـاء نمـوه عقلـه فـي دراسـة الطبيعـة وتفهـم أسـرارها إلـى أن توصـل فـي شـبابه إلـى وحـدة الخليقـة وضـرورة وجـود أصـل واحـد ترجـع إليـه جميـع المخلوقـات. لجـأ إلـى الجزيـرة رجـل دين زهـد فـي صـحبة النـاس راغبـاً فـي التفـرغ للعبـادة والتقـوى. التقـى الزاهـد، بعـد مغـامرات مسـلية، بحـَيّ وعَلـَّمه الكـلام. سـرعان مـا أتقـن حـَيّ اللغـة إلـى درجـة أن أصـبح قـادراً علـى محـاورة الزاهـد. اكتشـف الـرجلان فـي أحاديثهمـا أن الحقـائق التـي تَـوَصَّل إليهـا حـَيّ عـن طريـق العقل تتفق تماماً مع الحقائق التي تلقاها رجل الدين من كتبه السماوية.

قصـة ابـن طفيـل هـذه سـاهمت كثيـراً فـي تلطيـف حـدة الصـراع القـائم آنـذاك فـي الأمـة الإسـلامية بـين أنصـار التقليـد مـن المحـافظين وأنصـار التجديـد مـن العقليـين، وهـو نفـس الصـراع الـذي احتـد بعـد ثـلاث قـرون فـي أوروبـا. كمـا كـان لقصـة "حـَيّ بـن يقظـان" الجذابـة الوديعـة أثـر بـالغ علـى الخيـال الأوروبـي اسـتمر لعـدة قـرون؛ وأصـبحت نموذجـاً لكثيـر مـن الروايـات الغربيـة مثـل "روبنسـون كروزو" و "كتاب الأدغال" و "طرزان"..

يسـتطيع القـارئ المهـتم أن يجـد معلومـات أكثـر بكثيـر ممـا تحتويـه هـذه المقدمـة المختصـرة علـى الإنترنـت واليوتيـوب حيـث يمكـن إنـزال كتـاب ابـن طفيـل الأصـلي كَـنص مكتـوب وككتـاب مسـموع، ذلك إلى جانب ترجمات إلى لغات أخرى وحتى أفلام صور متحركة.

أقـدم قصـتي "عـودة حـَيّ بـن يقظـان" إلـى القـارئ العربـي كرمـز لتطلعـي وتشـوقي أن يعـود روح العصـر الـذهبي للإسـلام، روح السـعي الـدائب وراء المعرفـة والتوفيـق بـين الأضـداد، ليحـل محـل روح اليأس والتكاسل والشقاق والعجز عن لَمّ الشمل — المتفشي في يومنا هذا ...

***

ذات يـوم قبـل أعـوام كثيـرة خلـت، ظهـر حـَيّ فجـأة أمـام منزلـي، كمـا لـو كـان قـد تجسـد مـن الفضـاء. كـان هـذا المنـزل الضـخم فـي حـوزة عـائلتي علـى مـدى أجيـال لا حصـر لهـا، ومـع أنـه كـان فـي حالـة متداعيـة عنـد ظهـور حَـيّ، إلا أن بعـض علامـات أمجـاده السـابقة كانـت مـا تـزال باديـة. كـان جـدودي الأقربـاء قـد أهملـوا المنـزل إهمـالاً شـديداً، ولـم أكـن أنـا، السـاكن الوحيـد آنـذاك، قـد فعلـت خيـراً مـنهم.

كنت أقصر عنايتي على الفناء الأمامي المواجه للشارع الأنيق الهادئ حفاظاً على المظاهر، في حين أهملت الحديقة الكبيرة في الخلف إلى أن اندثرت معالمها تحت طبقة كثيفة من الأعشاب تبزغ منها هنا وهناك بعض الأشجار العتيقة السامقة. لم تكن الحياة تدب في المنزل إلا في جناحين، أحدهما كان سكن لي، أما الجناح الآخر فكان لا يُفتَح إلا عند قدوم بعض الأهل أو الأصدقاء للزيارة.

كان يوماً مشمساً من أيام الربيع وكنت منهمكاً في زراعة بعض الأزهار، عندما لاحظت رجلاً واقفاً أمام المنزل ينظر حوله بتردد. دهشت غير قليل من بزوغه المفاجئ إذ لم أكن قد سمعت ضجيج أي سيارة تفسر وصوله إلى هذا المكان. كان الرجل حسن الزي، غزير الشعر أسوده، أسمر اللون، وقَدّرْتُ أنه لا بد أن يكون شديد القوة ليتمكن من أن يجر وراءه حقيبة في ضخامة حقيبته.

تقدمت نحو سور الحديقة عارضاً المساعدة. سألني بلغة عربية فصيحة ولَهجَة لم أستطع تحديدها بدقة إن كنت أعرف أي شقة في الجوار تصلح لأن يؤجرها لبضعة أشهر. قَدَّم نفسه باسمه الأول "حَيّ"، ثم استطرد في الإشادة بجمال وهدوء منطقتنا السكنية، وأضاف أنه يفضل دائماً السكن في مسكن خاص على النزول في الفنادق. كان في وجهه وطريقة كلامه شيء يدعو إلى الاحترام والثقة جعلني اقترح عليه تلقائياً جناح الضيوف في منزلي، وهو شيء لم أكن فعلته مع أي غريب من قبل. دخل حَيّ إلى الحديقة الأمامية وأريته الغرفات المذكورة وطفت به قليلاً في سائر المنزل وخطونا بعض الخطوات في الحديقة الخلفية وبدا عليه أثناء كل ذلك الرضا والقبول. دفعني إلهام مفاجئ إلى أن أقول له: "لو كنت راغباً في تأجير غرفاتي فمرحباً بك، وأنا مستعد للتغاضي عن الإيجار لو وعدت بمساعدتي قليلاً في أداء بعض الأعمال اليدوية التي يشق عَلَيَّ القيام بها وحدي." أبدى الرجل تحمساً كبيراً وقال إن تجديد المنازل المتداعية هو أحد الهوايات التي يمارسها كلما سنحت له الفرصة وسمح الوقت. تعجبنا كلانا على توصلنا بهذه البساطة في عشر دقائق إلى صفقة مرضية لكل منا في حين لم نكن على سابق معرفة من قبل. وهكذا دخل حَيٌّ في حياتي.

***

لم أرى حَيّاً في الأسابيع التالية إلا نادراً. كنت أغادر المنزل إلى عملي في الصباح الباكر، وأفاجأ كل يوم عند رجوعي في المغرب باكتشاف تجديدات وتحسينات في المنزل لم تكن هناك في اليوم السابق. ولكني كنت أصادفه بين حين وحين في المطبخ، الذي كان له، تبعاً لاتفاقنا، حق مشاركتي فيه. كان حَيٌّ متحفظاً وميالاً إلى الصمت والسكون، ولم تكن هناك أي علامات يمكنني منها الاستدلال على وجوده في المنزل غير الأنوار البادية من نوافذ غرفاته أو من تحت عتبة بابه. كان يتلقى بانتظام من مكتب البريد صناديق كتب دفعتني إلى افتراض أنه يمضي أمسياته في القراءة والبحث.

نما في نفسي تدريجياً التقدير والإعجاب بجودة العمل الذي كان حَيّ يقوم به يوماً بعد يوم وبالجهد الذي كان يبذله متطوعاً في تجديد منزل شخص غريب عنه. كان قد أنجز في أسابيع قليلة عملاً تفوق قيمته ما كنت سأتقاضاه منه كإيجار عام كامل. وهكذا نمت رغبتي في أن أعرف المزيد عنه نمواً مطرداً إلى أن سألته آخر الأمر إن كان يقبل مشاركتي في وجبة العشاء كل

مساء. استملته بأن قلت له إن إعداد وجبة لشخصين لن يكلفني جهداً أكبر من إعداد وجبة لنفسي فقط، وسيكون بالتأكيد أكثر إرضاءً لي وأمتع. قبل دعوتي شاكراً.

دخلت علاقتنا في طور جديد بمجرد أن اعتدنا إمضاء بعض الوقت في المسامرة بعد العشاء. في الأيام الأولى دار معظم حديثنا حول المشروعات التي كنت آمل تنفيذها في المنزل. كان حَيّ يقترح ويعطيني فكرة تقريبية عن التكاليف وكنت أجدها دائماً معقولة وفي مقدوري. وهكذا كنت أوافق بحبور على كل مقترحاته.

بدأت ثلوج الكلفة والتحفظ تتراجع تدريجاً أمام دفء الود والألفة الناميين بيننا. في البدء كنا نتحدث عن المواضيع العامة التي كنا نقرأها في الصحف أو نسمعها في الأخبار. ومع أن حَيّ كان لا يبدي الكثير من الاهتمام بالأخبار المحلية، كان يتحمس كثيراً للشئون العالمية السائدة آنذاك وكان يحب أن يربطها بأحداث تاريخية ويحاول أن يستنتج منها تطورات محتملة في المستقبل. في كل مرة حاولت فيها أن أعرف المزيد عن أحواله الشخصية، كان يتملص من سؤالي إما بتغيير الموضوع بلباقة أو بإعطائي أجوبة مبهمة لا أستطيع أن استخلص منها أي بيانات نافعة. وكنت إذا أصررت على الحصول منه على جواب واضح يتجاهل سؤالي كلياً ويغوص في كرسيه مغمض العينين. عندما اعترضت ذات مرة بقولي إني أحتاج، لأسباب تتعلق بقوانين السكن، أن أعلم على الأقل اسمه الكامل، لم يخرجه ذلك من هدوئه بل قال ببرود: **"هراء!** اسمي الشخصي يكفي تماماً، وهو الاسم الذي عرفني به الناس في الثمان قرون الأخيرة**!"** يجب أن اعترف في هذا المقام بأنني لم أكن استسيغ أسلوبه في الفكاهة. ولكني تعلمت الدرس وقررت أن أكف عن الضغط عليه وأن أكون أكثر احتياطاً ودبلوماسية في التداول معه مستقبلاً. وقد وفقت لحسن الحظ إلى طريقة لفعل ذلك.

تلخص منهجي الجديد في إني بدأت أقص على حَيّ نُطُفاً من حياتي الشخصية بدون أي توقع أن يرد هو بالمثل. كنت في حياتي السابقة أتوق دائماً إلى صديق حميم أستطيع أن أفتح له قلبي بلا حرج. لَمَّحت لحَيّ عرضاً ذات مساء أن نوبات من الإحساس بالتعاسة والوحدة والخوف من كبر السن والعجز والموت تنتابني من حين لآخر. سرني كثيراً أن أجده يستمع باهتمام كبير. وهكذا اتخذ حَيّ لبعض الوقت دور الطبيب النفسي إزائي. كان ينصت في سكوت تام لا يقطعه إلا من حين إلى حين بإيماءة تشجيع من رأسه أو بكلمات قليلة تعبر عن تعاطفه. ولكنه كان يضن بإعطائي حلولاً لمشاكلي، وكلما طلبت منه النصح صراحة، يقول: "لا أومن كثيراً بمنفعة النصائح. ولكن لا تحمل هماً، ستتوصل يوماً ما إلى حل جميع مشاكلك بنفسك. حتى ذلك الحين، هناك نصيحة واحدة فقط أستطيع أن أقدمها لك، وهي النصيحة الوحيدة التي ستسمعها مني في أي وقت من الأوقات: أن تصبح واعياً **بالحضور الإلهي** بداخلك، وأن تسَلِّم نفسك لهذا **الحضور** تسليماً تاماً. لو حققت هذه المعرفة الأسمى في نفسك، سيكون ذلك تحقيقاً باهراً، ولكن اعلم أن هذا التحقيق إنجاز لا يتأتى بين عشية وضحاها. لو كنت ترغب المعرفة الحقة، يجب أن ترغبها من كل قلبك ويجب أن تتحلى بالكثير من الصبر والمواظبة. ولكنك لحسن الطالع لست مطالباً بأن تفعل كل ذلك معتمداً على قواك الشخصية، **فالعون الإلهي** سيكون معك، وسوف تصل إلى هدفك إن عاجلاً أو آجلاً."

***

توالت الأيام. كان المنزل يزداد روعة وبهاء من يوم إلى آخر، وكنت كلما دخلت المنزل أو الحديقة أشعر بموجات من الهناء الغامر والامتنان العميق. وقد كان لهذا التغير الخارجي أثراً بالغاً على حالتي النفسية منحني القوة على اتخاذ خطوات لتغيير مجرى حياتي كان أوانها قد آن. امتنعت عن قبول مهمات جديدة في عملي لكي أتفرغ لمشاركة حَيّ في إكمال المشاريع الباقية. كنت في كل ذلك أشعر بحماس ونشاط لم أعهدهما في نفسي من قبل. تحسنت صحتي بشكل ملحوظ وتوقفت نوبات الصداع والأرق والإحباط التي كانت تكدر حياتي منذ وقت طويل. كثيراً ما تعجبت على مدى تأثير إنسان واحد علينا يضرب لنا لأول مرة المثل على الحب الصادق ونسيان الذات. كان حَيّ قد تمكن في وقت قصير من أن يشفي في نفسيتي جراح صدمات عديدة سابقة لم أكن قادراً على شفائها بنفسي.

أستطيع أن أتذكر مرة واحدة فقط تحمس فيها حَيّ للحديث عن تجاربه الشخصية. استثرته ذات مساء عندما سألته مداعباً: "ما كل هذه الكتب التي تصلك بالبريد؟ كدت أظنك تعمل في تجارة الكتب!" ابتسم وقال: "أرحب بسؤالك لأنه سيتيح لي أن أشركك في بعض اهتماماتي. كنت، منذ آماد بعيدة، منشغلاً ببناء جسور فلسفية، أي بالتوفيق بين الآراء المتضاربة التي تستحوذ على أفهام الناس وتقسمهم إلى معسكرات متصارعة. خذ مثلاً الصراع القديم الذي شغل الناس منذ أجيال سحيقة: التضارب بين "المادة والروح" أو بين "الطبيعة وخالقها"، هذا الصراع يبدو أنه قد وجد اليوم حلاً مرضياً في أذهان الكثيرين. أتت بعد ذلك مشكلة التعارض بين الدين والعلم أو بين النقل والعقل. لحسن الطالع نرى اليوم كثيراً من علماء الطبيعة وقد نجحوا في التوفيق بين اكتشافاتهم العلمية وبين معتقداتهم الدينية والروحية. ولكن يبدو لي أن البشر ينبغي أن يذهبوا خطوة أبعد من ذلك ويوفقوا بين الرأي الذي ينادي "بإله واحد متفرد" وذاك الذي ينادي "بإله واحد يشمل كل شيء". الرأي الأول يغرس في الإنسان الرهبة والإجلال والتبجيل أمام الخالق، والرأي الأخير ينمي فيه الإحساس بالقرب من الخالق ويجعله أكثر تعاطفاً مع الكون بكل ما فيه من مخلوقات. هذا هو المجال الذي أعمل فيه حالياً. أنا لا أرى تضارباً كبيراً بين الرأيين، حيث أننا نستطيع أن نتقبل، ببعض حسن النية ومرونة الفكر، أن الإله الذي يحتوي كل شيء، لا بد أن يكون كذلك الواحد الأحد، حيث أن ما من شيء يستطيع أن يتواجد خارجه. قد يبدو لك كل ذلك مجرد سفسطة فلسفية، ولكنها في الحق معرفة سامية تطورت في الهند على مدى القرون، ولو أمكن تعميمها فإنها ستقارب كثيراً بين الأديان الكبرى التي يؤمن بها الناس في عالمنا اليوم، وذلك سيمهد بدوره الطريق نحو إنسانية موحدة وسلام دائم على الأرض.

***

ذات يوم رائع من أيام الخريف، كنا، حَيّ وأنا، نتأمل في صمت الحديقة وقد غمرتها ألوان الأشجار والأزهار والفراشات وأصوات الطيور والنحل والضفادع، وإذا به يقول فجأة: "لعلك تذكر أن خطتي كانت منذ البداية أن أمضي هنا بضعة أشهر فقط. وقد آن أوان رحيلي لكي أبدأ مهمتي القادمة. آخر أيام هذا الشهر سيكون آخر أيامي هنا."

مع إني كنت أتوقع سماع هذا الإعلان منه منذ فترة، فقد صدمني بقوة كبيرة اضطرتني إلى جمع كل طاقاتي لكي أتحكم في مشاعري. في كربي وانفعالي برق في ذهني أمل ضعيف دفعني إلى أن أعرض على حَيّ مشاركتي في ملكية المنزل بحيث يكون وريثي من بعدي. كنت آمل بذلك أن يصبح المنزل رباطاً يربطنا في المستقبل. أشرق وجه حَي وقال: "ما قلته للتو يغمرني بالسعادة،

ولكن ليس للأسباب التي تظنها. ما يسعدني هو رؤيتي مدى تقدمك الباطن والظاهر في الأشهر الأخيرة، وقد أصبحت الآن واثقاً من أنك ستكون قادراً على مواظبة هذا التقدم في المستقبل معتمداً على نفسك وبدون حاجة لأي مرشد خارجي. أشكرك جزيل الشكر على أي حال، ولكني مضطر إلى الاعتذار عن قبول عرض منزلك فأنا مستقر مادياً وأتلقى دائماً كل ما أحتاجه للقيام بأعمالي. وبالإضافة، لا ينبغي أن يرتبط من يقومون بأعمال من قبيل عملي بارتباطات من أي نوع. لا أشك في أنك ستوفق قريباً إلى أفضل طريقة لاستثمار ثروتك في صالح الجميع، وبذلك توطد الأساس لسعادتك الشخصية."

تلت ذلك فترة صمت طويلة شعرت فيها أن أي شيء قد أقوله سيضعف من مكانة وأهمية ما كنا قد تبادلناه للتو. أضف إلى ذلك أن حياً دخل في تركيز شديد لم أشأ أن أخرجه منه. نظر إلي بعد فترة وقال بابتسامة كبيرة على وجهه: " ما زال عندي رجاء واحد، وهو أن نمضي سوياً في الأيام الباقية بعض الوقت في التأمل الصامت. أقترح أن نخصص لذلك نصف ساعة بعد العشاء من كل يوم. سيكون من المستحسن أن نتحاشى قبلها كل ثرثرة لا طائل منها. إذا جلب لك تأملك خواطر يهمك أن تشركني فيها، تستطيع أن تفعل ذلك صباح اليوم التالي. سأحاول أثناء هذه التأملات أن أتصل بك داخلياً. إذا نجحت في ذلك، سوف ييسر لي ذلك الاتصال بك مستقبلاً من أي مكان قد أتواجد فيه."

بددت رغبة حَيّ في مداومة الاتصال بعد رحيله معظم ما كنت أحس به من الحزن على فراقه، وقبلت مرحباً اقتراحه. لم أكن قد مارست التأمل جدياً من قبل، ولكني كنت قد أنميت من خلال دراستي وعملي بعض الطاقة على التركيز. تفاءلت بهذه الفرصة لممارسة التأمل مع صديق أقدره كل التقدير وأعتبره مرشداً ومُعَلِّماً.

منذ أول جلسة تأمل لاحظت فرقاً شاسعاً بالمقارنة بما كنت أفعله من قبل. نزل علي سلام مكثف حجب عني كل الأفكار الشاردة. شعرت كما لو كان لي جناحان أقدر أن أطير بهما إلى الأماكن البعيدة التي كنت قد زرتها في رحلاتي السابقة. ولم يكن تجوالي مقصوراً على الفضاء وحده، بل كنت أتجول بنفس السهولة في الزمان أيضاً. كانت أحداث ماضية كتمتها أو نسيتها تطفو فجأة في ذهني، ولكني أصبحت قادراً في تأملاتي على رؤيتها في ضوء جديد وعلى استشعار وحدس مقاصد ومعاني فيها لم أفطن إليها من قبل. فهمت أخيراً أسباب وقوع هذه الأحداث والدور الذي لعبته في حياتي. وكلما طفت ذكريات أليمة في مخيلتي، كنت قادراً على تفسيرها وتوسيدها في السلام والسكينة. في تأملات أخرى، تمعنت في علاقاتي مع أقارب وأصدقاء لم يعودوا على قيد الحياة واكتشفت المغزى الحقيقي للتجارب التي مررنا بها سوياً. نجحت في إحدى التأملات أن أرى حياتي كلها كسلسلة متناسقة من المصادفات التي تشير كلها في اتجاه معين وعرفت يقيناً الاتجاه الذي ينبغي أن أتخذه في حياتي المستقبلة. قررت أثناء التأمل أن أستقيل من عملي في أقرب فرصة، وأدركت إني قد عملت بما فيه الكفاية وأن الأوان قد آن لأن أعيش تبعاً لمتطلبات الروح وليس تبعاً لضروريات الحياة. تعجبت لماذا أجلت اتخاذ هذا القرار كل هذا الوقت على الرغم من إني كنت دائماً في سعة ولا أحتاج إلى كسب قوتي. بهذا اتضح مخطط حياتي الجديد في مخيلتي ولم يتبق إلا أن أبدا في تنفيذ التفاصيل.

***

أتى اليوم الأخير. قاومت بشدة الاستسلام لعواطفي بخصوص رحيل حَيّ في فجر اليوم التالي. كل ما أذكره عن جلسة التأمل الأخيرة هو أنها كانت مفعمة بالسكينة والهناء وأطول كثيراً من كل الجلسات السابقة.

عندما فتحت عيني، وجدت الغرفة في ظلام دامس. بمراجعة ساعتي، وجدت إني فقدت وعيي الخارجي حوالي الساعة. لم أجد حَيًّا في مقعده؛ وافترضت أنه لا بد تراجع إلى غرفته ليستعد للرحيل في فجر اليوم التالي. ذهبت إلى غرفته ولم أجد بصيصاً من نور بادياً من أسفل الباب، فاستنتجت أنه لا بد قد نام بالفعل. قررت أن أنام على أريكة حجرة الجلوس لأكون واثقاً من سماعه في الصباح المبكر، إذ كنت أنوي على أن أصحبه إلى محطة القطار القريبة. عندما استيقظت في اليوم التالي، كانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء. قفزت من مضجعي وهرولت إلى غرفته فوجدت بابها مقفلاً. بدا لي كل ذلك في غاية الغرابة. فتحت الباب ونظرت داخل الغرفة فوجدتها كما لو كانت لم تمس منذ أيام. بحثت في الغرفة وفي كل مكان، عن رسالة وداع ربما كان قد كتبها، فلم أجد. أسرعت إلى محطة القطار، ووجدتها خالية إلا من بعض الأفراد المنتثرين هنا وهناك. ذهبت إلى شباك التذاكر لاستعلم عن القطارات التي غادرت في الصباح الباكر، فأخبرني عامل المحطة أنه لم تغادر المحطة أي قطارات ذلك الصباح، وأن آخر قطار ترك المحطة غادرها في مساء اليوم السابق.

عدت إلى المنزل بقلب ثقيل. وجدت المنزل يتألق في وهج ذهبي. ذهبت إلى الحديقة لأتمشى فيها قليلاً ووجدت في ترحيبي كل المناظر الجميلة والأصوات البهيجة والروائح العطرة التي تهبنا إياها حديقة نالت حظها من العناية والرعاية. شعرت من الطريقة التي اختفى بها أنني، على أغلب الظن، لن أراه مرة أخرى. لكي أتجنب العودة إلى الوحدة والاكتئاب، قررت أن أبدأ فوراً في تنفيذ المشاريع الكبيرة لتغيير حياتي التي كنت أنوي عليها. منذ ذلك اليوم أواظب على الجلوس للتأمل، وأنا واثق أن حَيّاً سيتصل بي في إحدى هذه الجلسات.

***

كانت الأشهر الماضية قد أتحفتني بالعديد من المفاجآت، ولكن سرعان ما أتت المفاجأة الكبرى. بعد حوالي الشهر من اختفاء حَيّ، تصادف أن زرت مكتبة الجامعة القريبة من منزلي. أثناء تجوالي بين رفوف قسم الأدب العالمي، لمحت كتاباً بعنوان "حَيّ بن يقظان لابن طفيل". لمس هذا العنوان شيئاً دفيناً بداخلي جعلني أشعر بانجذاب شديد نحوه. أخذت الكتاب من الرف وفتحته عشوائياً. وقع بصري على الفقرة التالية:

" ثم كان يجمع في نفسه جنس الحيوان وجنس النبات، فيراهما جميعاً متفقين في الاغتذاء والنمو، إلا أن الحيوان يزيد على النبات، بفضل الحس والإدراك والتحرك؛ وربما ظهر في النبات شيء شبيه به، مثل تحول وجوه الزهر إلى جهة الشمس، وتحرك عروقه إلى الغذاء، بسبب شيء واحد مشترك بينهما، هو في أحدهما أتم وأكمل، وفي الآخر قد عاقه عائق ما، وما أن ذلك بمنزلة ماء واحد قسم بقسمين، أحدهما جامد والآخر سيال، فيتحد عنده النبات والحيوان..."

" ثم ينظر إلى الأجسام التي لا تحس ولا تغتذي ولا تنمو من الحجارة والتراب والماء والهواء واللهب، فيرى أنها أجسام مقدر لها الطول وعرض وعمق وأنها لا تختلف، إلا أن بعضها ذو لون وبعضها لا لون له وبعضها حار والآخر بارد، ونحو ذلك من الاختلافات... فيظهر له بهذا التأمل أن جميعها شيء واحد في الحقيقة، وإن لحقتها الكثرة بوجه ما، فذلك مثل ما لحقت الكثرة للحيوان والنبات... وكان في هذه الحال لا يرى شيئاً غير الأجسام فكان بهذا الطريق يرى الوجود كله شيئاً واحداً، وبالنظر الأول كثرة لا تنحصر ولا تتناهى".

ثم بعد ذلك بصفحات:
"وذهل عما كان فيه من تصفح الموجودات والبحث عنها، حتى صار بحيث لا يقع بصره على شيء من الأشياء، إلا ويرى فيه أثر الصنعة، ومن حينه، فينتقل بفكره على الفور إلى **الصانع** ويترك المصنوع، حتى اشتد شوقه إليه، وانزعج قلبه بالكلية عن العالم الأدنى المحسوس، وتعلق بالعالم الأرفع المعقول..."

فجأة مرت ببدني صعقة برق أعطتني مفتاح اللغز الذي كان يحيرني منذ مدة: "من هو حَيّ؟" أخيراً اتضح لي مغزى أقواله الغامضة مثل "حَيّ هو الاسم الذي عُرِفت به في الثمان قرون السابقة" ، ومثل قوله: "كنت أعمل منذ أزمان سحيقة على بناء جسور فلسفية." أدركت أن حَيّاً أتى في حياتي ليعلمني، بضرب المثل، كيفية مساعدة الآخرين. تذكرت أنه كان يصر دائماً على ضرورة اكتشافي المرشد الإلهي الكامن بداخلي لكي أقدر على فعل ذلك. اجتهدت منذ ذلك اليوم في اتباع مثله وتحقيق رؤيته.

***

مر عشرون عام منذ ذلك الحين؛ وأصبحت الآن ما يسميه بعض الناس "شيخاً مُسِناً"، ولكن يسعدني أن أقول أني لم أجد التقدم في السن شيئاً كريهاً إلى الدرجة التي يظنها الناس. حرصت طوال هذا الوقت وحتى اليوم على ألا أشارك قصتي مع حَيّ مع أي إنسان، لأني كنت أتوقع أنها ستقابل بعدم التصديق والسخرية. ولكن تغيرات كبيرة حدثت في العالم في الأعوام الأخيرة ومن أهمها أننا نرى أعداداً متزايدة من الناس، من جميع مسالك الحياة ومن كل أرجاء الأرض، يتفتحون للروحية. أصبحت واثقاً الآن أن بعض هؤلاء يعرفون من واقع تجاربهم أن الرموز والمثل العليا والأحلام تكون أقدر أحياناً على تشكيل حياتنا من الوقائع الخارجية الملموسة. إلى هؤلاء الأقلاء أهدي هذه القصة.